الافتتاحية

تأملت كثيرًا إهداء الأستاذ الدكتور منصور إبراهيم الحازمي، الذي افتتح به كتابه الأخير، المعنون: "ما وراء الأطلال"، الصادر عام ١٤٢٧هـ٢٠٠٦/م، وجاء في إهداء الكتاب: "إلى جامعتنا الحبيبة – جامعة الملك سعود – وقد بلغت عامها الخمسين، وبلغنا نحن روادها ما فوق ذلك بكثير. أتيناها وهي طفلة وعلّمنا أبناءها الأوائل، حينما كنا معيدين في شرخ الشباب؛ ثم عدنا إليها بالشهادات العليا؛ فاحتضنتنا، وقدمنا لها كل ما نملك من الحب والوفاء؛ فلها أهدي هذه الأوراق ... القديمة. وإلى كل تلميذاتي وتلامذتي، الذين أصبحوا اليوم أساتذة كبارًا، يُشار إليهن وإليهم بالبنان..." . ثم عدّد أسماءهن وأسماءهم، أستاذات وأساتذة، يفخر بهم المجتمع الثقافي في بلادنا، بل وفي خارجها كذلك.

ولكن لماذا سمى الحازمي كتابه الجديد "ما وراء الأطلال"؟ هل هي عودة إلى مساءلة الديار، كما فعل امرؤ القيس عندما عده مؤرخو العرب أول من بكى واستبكى ووقف على الديار؟! وعن أي شئ يسألها؟ وهل تنطق الأطلال؟! لعله يستنطقها، ولعلها تتحدث إليه وتعيد له شريط الذكريات، ذكريات خمسين عامًا مضت في هذه الجامعة، نعم في هذه الجامعة، التي تخلّت عن الذين شاركوا في بنائها، وتغافلت عن ضمهم في برامجها، لتكرمهم وتوشّحهم بوشاح التقدير والإجلال، بوصفهم بناةً لهذا الصرح، الذي يفتخر به مجتمعنا.

الحازمي واحد من الطلائع، الذين سلكوا طريق العلم والمعرفة؛ انضموا إلى الجامعة وعمرها سنتان، وشهدوا مراحل نموها؛ مشاركين في تغذيتها بلبان المعرفة وهي في العاشرة، ومرت بمرحلة المراهقة، فكانوا، بكياستهم وحزمهم وبصيرتهم، أولئك الذين صرفوها عن نزق المراهقين إلى الانكباب على صوى وضعوها؛ لكي يتخذ منها الجيل الجديد منهجًا يحذون حذوه، ويبقى علماً ينتفع به.

ولا شك أن مما شارك به الحازمي، هو المجلة الأكاديمية، وكانت المجلة الأولى في كلية الآداب بل في المملكة العربية السعودية، فكان وراء تأسيسها، ورأس تحريرها؛ فأخرج أول عدد منها بأبحاث الزمرة الأولى من طلائع الأكاديميين السعوديين، وسار بها حتى ثبتت على الطريق، وانتشرت في الأوساط الأكاديمية في مكتبات الجامعات العربية والأجنبية، والمثقفين، المعنيين بالعمل العلمي الرصين، ثم بدأت، منذ ذلك الوقت، باقي كليات الجامعة في إصدار مجلاتها، على نسق مجلة كلية الآداب. ولعل هذه المجلة فتحت بابًا جديدا في العمل الأكاديمي، هو العمل العلمي المشترك، الذي يؤتي أكله، إذا ما تضافرت الجهود؛ فقد قام الحازمي برحلة إلى وادي ألاب في خيف الكسا، موطن آبائه وأجداده من الحوازم من قبيلة حرب، وهناك لفت نظره عدد من الكتابات العربية القديمة، فصورّها وأتاني بها لأدرسها، فقلت له: حبًا وكرامه، ولكن لماذا لا تكتب أنت عن المكان وسكانه؟ فاستجاب؛ وهكذا تحقق أول عمل أكاديمي مشترك في كلية الآداب بينه وبيني؛ كما فتح في المجلة بابًا كنا نتمنى أن لا يغلق، وهو تقديم ملخصات الرسائل العلمية التي يقدمها السعوديون للجامعات الأجنبية لنيل درجة الماجستير والدكتوراه؛ فكان ثمرة جميلة نضرة من أعمال هذه المجلة .

ذلك طلل من الأطلال، التي تركها الحازمي، يقدم الأنموذج الذي لم يقدم مثله مَن جاء بعده. لقد قدّم الحازمي، وقدّم كل منا، أنموذجاً ونبعاً، ما زال الآخرون من بعدنا، يرشفون من مائه العذب، والمنهل العذب كثير الزحام.

*****

بعثت إليَّ رعاية الشباب مخطوطة كتاب عن مدينة "بدر" لأحكّمه، وهو للأستاذ محمد صالح البليهشي؛ فقرأتها، وبينما أنا أقلّب صفحاتها، وإذا بشوق يهزني لرؤية تلك الربوع، التي شهدت أول مواجهة بين الأيمان والشرك، حيث انتصر فيها الحق على الباطل؛ فاتصلت بالمؤلف، وقلت له: ما رأيك في أن نذهب سوية إلى بدر؟ قال: حبًا وكرامة، أنا في جدة هذا الأيام. وسافرت إلى جدة، والتقيت به، وفي صبح من أصباح أيام ربيعية من عام ١٤١٣هـ، خرجنا من جدة ميممين بدرًا، ووصلناها قبيل الظهر. بدأنا بالسلام على أميرها، وهو أحد أشراف "بدر"، مبارك بن حمود آل نامي؛ فأصر على الجلوس عنده، وأكرمنا خير إكرام، وجمع لنا جمعًا من أهل بدر، ودار الحديث عن آثارها وأحوالها وأماكن المعركة الشهيرة. وبعد الغداء، توجهنا لزيارة المناطق الأثرية كلها، ورأينا بعض الشواهد، كل ذلك والبليهشي يصوّر وينقل. كما زرنا مسجدًا فخمًا بناه أحد سراة جدة، وتجولنا في مدينة بدر القديمة، وآلمنا ما شاهدنا من دور أُزيلت، ولم يبق إلا شارع ضيق على جانبيه دكاكين لم تُزل، وعليها أقفالها؛ فتوسلت إلى أمير بدر أن يبذل كل الجهد للإبقاء عليها.

بعدئذ سلكنا الطريق القديم إلى المدينة المنورة، وعلى طول الطريق، كنا نرى عيوناً ومنازل وقرى، بعضها شقها الطريق، وبعضها ما زالت كاملة، فقلت في نفسي: كم نحن مهملون في حق آثارنا؟! وتبين لي أن من كانوا يسكنون هذه البيوت لم يكونوا بدوًا؛ لأن البدوي هو المتنقل، أما الثابت فهو حضري. وحق لهذه المناطق وسكانها أن تسمى ريفًا؛ لأن البيوت ما زالت قائمة، والنخيل قد جف، والعيون قد أهملت؛ كل ذلك يدل على استقرار لا ارتحال. وحدثني الأستاذ البليهشي عن هذه العيون ودورها، وعن تنظيم كميات المياه بين المزارعين؛ فتذكرت النظام نفسه، في سلطنه عُمان، وعين فرزان في الخرج، وعيون دومة الجندل والعُلا، وما قام به العثمانيون في المدينة المنورة . كما تذكرت الدراسات التي أجريت حول هذه الأفلاج، وما قام به الزميل الدكتور عبدالله آدم نصيف في دراسته للدكتوراه عن عيون العُلا، ونظام تقسيم المياه فيها، وعمرها الافتراضي، وتبين أن العُلا كان فيها ما يزيد عن أربعين عينًا، شهدها كل من مر بها. وتساءلت لماذا لا تُجرى دراسة بعنوان "مدن دارسة على طريق الحج بين مكة والمدينة"؟ ومما أشك فيه أن عملاً كهذا، لو أُنجز، سوف يمدنا بمعلومات ثرّة، لا عن العيون والسقاية فحسب، بل عن السكان والقرى ونماذج العمران، وهي معلومات نفتقدها؛ فأين طلاب العمارة والتخطيط عن هذا الكم المهمل؟!

لقد سعدت مؤخرًا بدراسة البليهشي عن وادي الفرع، في كتاب أصدره على حسابه الخاص، لأنه لمس جزءًا مما تحدثت معه عنه، ونحن في طريقنا إلى المدينة المنورة، فأفاد من ذلك الحديث بأن ألقى الضوء على عيون وادي الفرع ونظام الري فيه، ولعل عمله هذا يشجع الآخرين على عمل أوسع وأعمق، لكل تلك المدن الدارسة.

*****

شهد الناس في هذه الأيام أحاديث كثيرة في الصحف السعودية عن مسجد البيعة، وتناوله الكتّاب بالبحث والدراسة؛ فمنهم من شكك في أنه المكان الذي بايع فيه الأوس والخزرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، على المنعة والذود عن حمى الإسلام. وقد كان المؤرخون يجمعون على صحة هذا المكان لأن البناء يحتوي على نصوص بنائية، تعود إلى عصر الخليفة العباسي، أبي جعفر المنصور، سنة ١٤٤هـ؛ وكان ممن كتب في هذا الموضوع الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد، أستاذ الآثار الإسلامية، ووكيل وزارة التربية والتعليم للآثار

والمتاحف سابقًا. إن مما لفت نظري في ما كُتب، هو أن العباس، الذي شد لرسول الله العقد، كان العباس بن عبدالمطلب، مع أنني أذكر، أنَّ الذي فعل ذلك هو العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري الخزرجي، وقد رجعت إلى كتب تراجم الصحابة، فوجدت الرواية التالية: عن عباس بن عبادة الأنصاري: (شهد بيعة العقبة، وقيل شهد العقبتين، بل كان في النفر الستة من الأنصار، الذين لقوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأسلموا قبل جميع الأنصار. أخبرنا عبدالله بن أحمد بن علي البغدادي، بإسناده إلى يونس بن بكير، عن ابن إسحاق في بيعة العقبة الثانية، قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، وعبدالله بن أبي بكر بن حزم، أن العباس بن عبادة بن نضلة، أخا بني سالم، قال: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود، فإن كنتم ترون أنها إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله، إن فعلتم، خزي الدنيا والآخرة؛ وإن كنتم ترون أنكم مستضلعون به، وافون له بما عاهدتموه عليه، على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قال عاصم: فوالله ما قال العباس هذه المقالة إلا ليشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بها العقد؛ وقال عبدالله بن أبي بكر: ما قالها إلا ليؤخّر بها أمر القوم تلك الليلة؛ ليشهد عبدالله بن أبيّ أمرهم فيكون أقوى لهم. قالوا: فما لنا بذلك - يا رسول الله - إن نحن وفينا؟ قال: "الجنة" قالوا أبسط يدك. فبسط يده فبايعوه؛ فقال عباس بن عبادة للنبي صلى الله عليه وسلم: لئن شئت، لنميلن عليهم غداً بأسيافنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لم نؤمر بذلك". ثم إن عباسًا خرج إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو بمكة، وقام معه حتى هاجر إلى المدينة، فكان أنصاريًا مهاجرًيا. وآخى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بينه وبين عثمان بن مظعون، ولم يشهد بدرًا، وقُتل يوم أحد شهيدًا).

وهكذا تدل هذه الرواية، التي ذكرها ابن الأثير في "أسد الغابة"، على أن العباس بن عبادة هو الذي شد العقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج، بمن فيهم عبدالله بن أبي. وفي ترجمة العباس بن عبدالمطلب، عم الرسول، صلى الله عليه وسلم، في "أسد الغابة"، إشارة إلى حضور العباس بن عبدالمطلب البيعة ليشد له العقد، وكان مشركاً، ولكنه لم يذكر نص الحوار، كما لم يأت بمن روى عنهم ذلك، ولكن ابن الأثير أتى بالنص المقارب للحوار، الذي ذكرناه آنفًا، دون الإشارة إلى رواة للحدث، ما يجعلنا نقبل حضوره، ولكننا نشك في أنه كرر الحوار، الذي جرى بين عباس بن عبادة وبين الأوس والخزرج. وفي ذلك فرصة للمؤرخين ليناقشوا صحة نسب الأمر إلى العباس بن عبدالمطلب.

رئيس هيئة التحرير